ردود وبراهين

موقف الإسلام من الإلحاد

عبيد الله الباقي أسلم
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

إن الإلحاد تيار فلسفي يقوم على إنكار وجود الخالق؛ والحق أنه ليس عند الملاحدة دليل موافق للعقل أو المنطق يدل على عدم وجود الله تعالى، وعلى عدم صحة القول بوجود الله تعالى؛ فالإلحاد وإنكار وجود الخالق أفسد القول، وأبطل الباطل؛ لأنه لا بد للممكن من واجب، وللمُحدَث من قديم، والمخلوق من خالق غير مخلوق؛ فليزم وجود الخالق الغني القديم الواجب بنفسه بالضرورة[1]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] ، فإنكار وجود الخالق إنما هو دليل على فساد الفطرة؛ لأن الفطرة السليمة والمخلوقات كلها تدل على أن الله خالق كل شيء ومالكه ومدبره، وهو المستحق لجميع أنواع العبادة، ويوضح ذلك ويؤكده الدلالات الآتية:

أولاً: دلالة الفطرة[2]:

ولا ريب أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقًا مدبرًا، وتستوجب معرفته إياه، وتألهه له؛ وهذه الصفة ذاتها هي المغروزة في الإنسان التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وإذا كان قد علم بالبراهين اليقينية القاطعة أن وجود الخالق أعظم الحقائق، وأن معرفته والتأله له أعظم المنافع؛ فإنه يتعين بذلك أن

(١) ينظر: شرح الأصبهانية (ص: ٣١٤).

(٢) ينظر: الأدلة العقلية والنقلية على أصول الاعتقاد (ص: ١٩٨ - ٢٠٨)، والإلحاد للمبتدئين (ص: ٦٧ - ٧٠).

يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به[1]، ويدل على ذلك ما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

٢ - وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢] .

٣ - وقول النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه»[2].

ففطرة الإنسان مقتضية موجبة لدين الإسلام، وتستلزم الإقرار بالخالق ومحبته والإخلاص له، وذلك يحصل شيئًا بعد شيءٍ بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من العوارض، فمن أنكر الصانع إنما أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها[3].

ثانيًا: دلالة المخلوقات[4]:

إن كل شيء يدل على وجود الله تعالى، إذ ما من شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته سبحانه، وما ثم إلا خالق ومخلوق، والمخلوق يدل على الخالق فطرةً وبداهةً، إذ ما من أثر إلا وله مؤثر، كما اشتهر قول الأعرابي الذي سئل كيف عرفت ربك؟ فقال -بفطرته السليمة-: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وجبال وبحار وأنهار، أفلا تدل على السميع البصير(٥).

وقد ورد كثير من النصوص الشرعية

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٥٨)، وشفاء العليل (ص: ٥٠٠).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه (ح: ١٣٥٨)، وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (ح: ٢٦٥٨).
(٣) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٨٣)، وشفاء العليل (ص: ٤٧٩).
(٤) ينظر: الأدلة العقلية والنقلية على أصول الاعتقاد (ص: ٢٠٩ - ٢١٦)، والإلحاد للمبتدئين (ص: ٣٧ - ٣٨).
(٥) ينظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص: ٨٣).

التي تنص على أن الله خالق كل شيء ومالكه، وأنه هو المدبر في جميع الأمور: ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثالثًا: دلالة العناية:

يقصد بالعناية ظهور آثار الكمال، والتي تتجلى في إتقان الله تعالى وإحكامه، ودقة صنعه وترابطه وتناسقه؛ وهي مبنية على أصلين:

الأصل الأول: أن جميع المخلوقات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان مهيأة له.

الأصل الثاني: أن هذه الموافقة، وهذه الدقة، وهذا الإتقان والتناسق بالضرورة قد أوجد من قبل حكيم خبير مريد لعبادة الخلق له وتوحيدهم إياه(١).

(١) ينظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد (ص: ٢٢٦)، والدلائل القرآنية على توحيد الربوبية (ص: ٦٠)

وبيان ذلك بما يلي:

أ- الدقة والإتقان:

وإذا كان الخلق يدل على وجود الله عزَّ وجلَّ؛ فإن دلالة الإتقان والعناية على وجوده أظهر وأبين؛ لأن العناية أخص من الخلق، وهي ظاهرة في الكائنات كلها.

١ - قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ ﴾ [النمل: ٨٨] .

٢ - وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة: ٧] .

فهذه الأدلة الشرعية ومثلها تدل على عناية الله تعالى بهذا الخلق؛ لما فيه من التنظيم الدقيق، والتناسق العجيب في أجزاء الكون كله (٢)، بل في ذلك أعظم دليل على بطلان الخرافة القائلة بحدوث العوالم عن طريق المصادفة (٣).

(٢) ينظر: الدلائل القرآنية على توحيد الربوبية (ص: ٦١ - ٦٣).

(٣) ينظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد (ص: ٢٣٥ - ٢٣٦).

ب – التقدير:

وإذا كان الإتقان والعناية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه المناسب له، فإن التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفع به نفسه، ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكم الذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه وينتظم بها سير الوجود.

وهذا التقدير ظاهر عام في جميع مخلوقات الله تعالى كما قرر هذه الحقيقة في كتابه.

١ – قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] .

٢ – وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] [(١)].

ج – الهداية:

إن الهداية من أظهر الأدلة الكونية على وجود الله عزَّ وجلَّ، ويقصد بها أن كل خلق من مخلوقات الله تعالى قد ألهم غاية وجوده، وهدي إلى ما خلق من أجله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

وهذه الهداية ليست مقصورة على الكائنات التي تتحرك بالإرادة فحسب، ولكنها هداية مبثوثة في كل شيء في هذا الوجود؛ لتحمل في طياتها أبلغ الأدلة على وجود الرب جل وعلا وبديع صنعه وتدبيره.

١ – قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] .

٢ – وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] [(٢)].

فالذي خلق المخلوقات، وأعطاها خلقها الحسن الذي لا يقترح العقول فوق حسنه، وهداها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب [(٣)].

(١) ينظر: الدلائل القرآنية على توحيد الربوبية (ص: ٦٣ – ٦٤).

(٢) المصدر السابق (ص: ٦٤ – ٦٥).

(٣) ينظر: تفسير السعدي (١/ ٥٠٦).

رابعًا: دلالة المقاييس العقلية:

إن الله عزَّ وجلَّ قد ضرب أمثالًا كثيرة في القرآن الكريم؛ وهي المقاييس العقلية التي تدل على أصول الدين، ومنها الإيمان بوجود الله تعالى، وربوبيته، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "هذا تقسيم حاصر ذكره الله بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه المقدمات معلومة بالضرورة لا يمكن جحدها يقول: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: من غير خالق خلقهم؛ أم هم خلقوا أنفسهم وهم يعلمون أن كلا النقيضين باطل؛ فتعين أن لهم خالقا خلقهم سبحانه وتعالى"[1].

وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

هذه الآية الكريمة تدل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لا رب غيره ولا إله سواه؛ فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، وكذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان؛ فالعلم بأن وجود العالم عن الصانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين[2].

خامسًا: دلالة معجزات الأنبياء:

إن معجزات الأنبياء من أظهر الدلائل على ربوبية الله عزَّ وجلَّ، وذلك بأن هذا الدليل مبني على مقدمتين ونتيجة:

المقدمة الأولى: حدوث هذه الآيات المعجزة للبشر على خلاف معهودهم ما يدركونه من أسباب.

المقدمة الثانية: أن حدوثها على تلك الصفة يدل على أن لها مسببا موجدا أوجدها على غير تلك الهيئة المعهودة.

النتيجة: لا بد أن يكون الله جل جلاله هو الذي أوجد هذه الآيات على

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٨).

جهة تخالف ما سنّه كونًا.

ف"هذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها؛ فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها ...كما كانت من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته وقدرته وإرادته وعلمه بالكليات والجزئيات وعلى رسالة الرسول وعلى المبدأ والمعاد" (١).

فالمعجزات إحدى الطرق القرآنية في إثبات الربوبية؛ وذلك أن المعجزة كما تدل على صدق الرسل؛ فإنها تدل أيضًا على ربوبية المرسل وألوهيته(٢).

سادسًا: دلالة الآيات الشرعية:

لقد ورد كثير من الآيات القرآنية التي تدل على ربوبية الله تعالى، ومنها:

١ – قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦] .

٢ –قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [لقمان: ١١] .

فمن تأمل مثل هذه الآيات الشرعية يجدها شاهدة بإثبات ربوبية الله تعالى؛ ومن أنكر وجوده وربوبيته فهو بمنزلة إنكار العلم وجحده (٣).

سابعًا: دلالة الآيات الكونية:

صور الاستدلال بالآيات الكونية على الخالق كثيرة جدًا، ومنها:

أ – خلق الإنسان:

كما قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٩٧).

(٢) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٤٤).

(٣) ينظر: عقيدة التوحيد (ص: ٢٣ – ٢٤).

تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦] .

فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامة، وهو دليل شرعي؛ لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به؛ وهو دليل عقلي؛ لأنه بالعقل تعلم صحته [١].

ب - خلق السموات والأرض:

إن خلق السموات والأرض يدل على الخالق دلالة صريحة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] .

وقد جاء الأمر الصريح بالنظر في خلق السموات والأرض، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]، كما جاء الإنكار على الكفار في إعراضهم عما في السموات والأرض من آيات تدل على ربوبيته -تعالى-، وانفراده باستحقاق الألوهية دون غيره، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥] .

خلاصة القول:

إن الآيات الداعية إلى التفكر في خلق السموات والأرض، والمنكرة على من غفل عن آياتها كثيرة جدًا، وحسبنا ذكر ما تضمنت من لفتات إلى ما في خلق السموات والأرض وما بينهما من وجوه الدلالة على الخالق البديع – جل وعلا – [٢].

***

(١) ينظر: النبوات لابن تيمية (١/ ٢٩٢).

(٢) ينظر: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد (ص: ٢٦٥ – ٢٦٧).